الإبداع

٢٢٩

يوم لا يكون الظلام كالعـــدم (محكيـــــات)

نــص

وليد إخلاصـــي*

ما الذي حدث في لحظات الظلام الطويلة وهي تخيم على أفراد في مواقع مختلفة في المدينة فأصاب الواحد منهم فزع أو اضطراب لينكسر إيقاع يومه، وكانوا وهم يتركون خيالهم يتخبط في بحيرة السواد يهتدون عفواً أو بتصميم إلى شاطئ الأمان عندما تنسج المخيلة حالات من البصيرة يرون فيها حقيقة أنفسهم .

* أديب وروائي وناقد سوري
- العمل الفني: الفنان زهير حسيب

وهكــذا عندما أصاب النور عطل وساد ظلام دامســ اختلج القلــب خوفاً وتشعب الذعــر في الــروح وتوجه الدعــاء إلى الله أن ينير تلك اللحظــات الأشبه بالعدم فإذا بالخيــال يحضر لتبدد أنوار الأعماق ظلمة الخارج.جعلــت الأم تتلمســ طريقهــا في الظلام المفاجئ بحثاً عن مقعد تركن إليه. وإذا ما هــدأ قلبها المفزوع تذكرت أولادها الغائبين منــذ زمن. فتأوهــت وهي تنادي عليهم واحداً فواحداً.

جــاء الابن الأكبر حاملاً حنينه إلى أمه هدية غلفتها الشكوى مــن الغربة والحياة الصعبة. ضوضاء الآلات في المصنع تحولني إلى آلــة محمومة حرم عليها التذمر. أيامي من غيرك لا معنى لها وبالرغم من ذلك فإن العناء من أجل لقمــة العيش لم يمنع قراره مــن أن يعــود عندما يقوى عــوده ويصبح قادراً على إعالة الأهل. ويهمس في أذنها إن الغربة التــي أكره عليها قد زادته محبة لها ولأخوته وسيعوض علــى الجميع الفقدان المبكر للأب، وسيظــل ساعياً بكل قواه لأن يكون في المستقبل مصدراً لسعادتهم ومدهم بما يحتاجون إليه.

وقــام الابــن الثاني بتحســس كف الأم بقبــلات أحست بها ملتهبة فتساقط الدمع من عينيها. جعل يهمس مرتعشاً إن ابتعاده عنهــا لم يكن بإرادة منــه ولم يحسب للفراق القاسي حسابــه لذا فهو يدفع الثمن غالياً لآراء يؤمن بهــا. لابد من اليوم الذي أعود فيــه من المعتقل وأبقــي إلى جانبك أعينك وأحبك. وأغمضت الأم فانبثق من أعماقها وميض نور يتسرب من بؤرة اتسعت مساحتها ثم ما لبث أن خبا وانطفأ. حاولت من جديد أن تستعيد ابنها من زنزانته وحيداً تتلاطم آهاته على الجدران الصماء وكأنها الحرية تبحث عن مخــرج. وتحسست بكفيها هلام العتمة بحثاً عن الابن كي تستمد منه الصبر فوقعت أصابعها على خشب ذراعي المستند البارد فغضبت.

وجعل الابــن الأصغر يمسح على رأسها بكفيه ويقبل شعرها كما يفعل أيام طفولته. وشوشهــا بكلمات فهمتهــا بالرغم من تعثر حروفهــا. تصيبهــا النشوة وتقــول معاتبة إنــه تأخــر في حضوره بالإجــازة الموعودة وتتساءل متــى يحين وقت انتهــاء خدمته العسكرية فتسمعه يقــول لا بد أنها قريبة لحظة تسريحه. وكان الظلام يطرح أسئلته، أتراهم يقدمون له الطعام الذي يحبه؟ أيأتيه

فنجـان الحليـب إلى فراشه قبـل أن ينام؟ مـن يرتـب لصغيري سريـره؟ أتراه يشاهد برامجـه المفضلة في التلفزيون؟.

ونـادت في سماء العتمة علـى أولادها فسمعـت خطواتهـم تتقدم نحوها، وظلت تنـادي وكأن الظلام فقد سطوته في فرض عذاب الوحدة عليها. وكانت تقـول لنفسها بينمـا النـور يعـود إلى الـدار إن صـوت الأقدام يبشر باقتراب عودة الأبنـاء بالرغم من طول البعاد.



ما عادت الإضاءة كافيـة لتظهر الود في صورة الزوجين يوم الزفاف. وبينما الطفلة تغـط في النوم في غرفتهـا جلست الزوجة الشابـة تراقب عن بعد تلـك الصورة فلا ترى منهـا سوى الإطار المعـدني وقد خبا بريقه. وانقطع النور دون إنذار وساد ظلام كالعماء. بـات خوفها مرتبطـاً بالصغيرة فزحفت إليها لتطمئـن على استغراقها في الأحلام. جلسـت الزوجة على سرير الابنة

وجعلت تتلمس استكانتها للدفء وهي تنتظر عودة النور فكانت كحارس على الصغيرة يحميها من خطر الظلام.

وهاهو الليل يعلن عن انتصافه بدقات الساعة التي تضخمت في سمعها كمطارق تولد الذعر. الزوج مازال غائباً كعادته في الأسابيع الماضية لا يعود إلا مع تباشير الفجر الأولى. يتسلل من الباب يجر تعبه ويرفض أن يجيب على سؤال أو استفسار. الأنثى مؤهلة دوماً لمعرفة توقيت خيانة الرجل، ولكن المرأة الشرقية تتحفظ عادة في كشفها عن تلك المعرفة وذلك خوف خسارة كل شيء.

« أنا التي اخترته بالرغم من ممانعة أهلي ومقاطعتهم لي، وأنا من عليه أن يحتمل عذاب الخيانة ويدفع ثمن عجزي عن إعالتي مع ابنتي» وهمت عليها أيام الحب الأولى. الزوجة تستحضر كل لحظة غمرتها بمشاعر الحب الطاغية فما عاد هناك وزن لحب الأم أو الأب أو الأخوة أو الصديقات، وبات الحبيب هو الأهل وهو الزينة التي تتجمل بها وهو الحديقة التي تزهر على مدار الفصول وهو الزمن الذي تحسب به حياتها. كانت كلماته وعوداً بالجنة وكانت الجنة عينيه تغرق في أعماقها ويديه اللتين تمسحان على جسدها، كان هو النشوة التي تنقلها إلى فضاء لا حدود لأبعاده وكان هو السماء التي تسبح فيها بلا تعب.

و أعاقت العتمة تدفق خيالها وهي تتذكر أن مصير مثل هذا الحب الجميل قد انتهى إلى خيانة، والخيانة باتت نظاماً يومياً يتحكم في حياة الأسرة فتساءلت إن كان زمن الحب قد انقضى وأنه بات زمن العشيقة !

«ما الذي يتوفر في تلك المرأة؟ أنوثة، عطاء، صدق».

و استيقظت مخيلتها وهي تحاول أن تصور الأخرى وأن تبحث عن شيء يدل عليها.

قلبت صفحات معرفتها بالنساء. أتكون واحدة من المطلقات اللواتي يترددن على مكتبه في استشارة قانونية أو ملاحقة حكم قضائي ؟ أم أنها واحدة من صائدات الرجال ؟ أتكون واحد ة من المعا رف. هل أصابت جرثومة الثروة زوجها فعجز عن مقاومتها، أتراه طيش الشباب في فترة معينة، أم أنها كانت السبب في انكفاء زوجها عنها لإهمال منها له في تعلقها بابنتها الصغيرة ؟

وتهيأت في الظلام لمراجعة نفسها من يوم الزواج، واستدعت كل اللحظات والتفاصيل اليومية والحميمة، ورددت بصوت مسموع: «كنت أعطي دوماً ولم أتوقف عن حبه».

و قالت لليل القاسي :

«ما دمت الطرف الأصعب في معادلة الأسرة فلا بد لي من أقوم بخطوة فعاله لتصحيح هذا الوضع الذي وصلنا إليه».

ووجدت في مداعبة شعر الصغيرة النائمة شجاعةً تمتد في روحها. قررت أن تقوم بشيء تستعيد به حبيبها وزوجها وحارسها. وكأن الظلام تحول إلى إشراقة فيها تنسيها عذاب الأسابيع المظلمة وتدفعها إلى التفكير في استعادة رجلها إلى حظوة الحب وحماية مثلث أسرتها. ويعود النور فجأة إلى الدار فتحس بآثار الشجاعة فيها كما لم تعرفها من قبل.

عاد الشاب إلى القبو متعباً بعد يوم حافل بالمشقة. فالبحث عن عمل ما زال مرتبطاً بالسؤال الملح الذي لاجوا ب له ومرافقاً للتنقل من مكان لآخر عارضاً نفسه وما من قابل له. حصيلة اليوم الشاق هي كالعادة لا شيء.

كان المكان، الذي تطل عليه حجارة أرضية الزقاق. شبه عار تملأ الرطوبة فراغه وطافت عينا الشاب في أرجائه وهو يتوجه إلى السرير ينوي الاسترخاء عليه للتعويض عن يوم بحث فاشل، وما إن استلقى يعاين عضلات ساقه بإشفاق حتى انطفأ النور وعم الظلام الدامس. لبث ساكناً كتمثال وهو يقاوم الخوف الذي بات مع العتمة شريكاً في القبو المحكم الإغلاق كزنزانة. وظل ممدداً لا يحاول الحراك وكأنه يخشى أن يثير الجن.

بعد دقائق خرجت عليه أيام القرية وهبت سحب الغبار الجاف تلفح وجهه، فجعل يحدق في العتمة بحثاً عن لحظات حلوة مرت عليه في القرية فلم يعثر على واحدة منها في ماضيه الذي بات منسياً من يوم شد الرحال والهرب من جحيم الأرض.

لم تفتح له المدينة ذراعيها فكافح بضراوة ووجد عملاً في السوق. وحيداً يعيش حماراً يعمل. ينقل البضائع على كتفه ويتحمل الإهانات ولا يلقى سوى التعب وكفاف يومه، ويوم ثار على شتيمة رئيس العمال كانت نهاية المرحلة.

لا يعـرف اليأس فيجـد في البحث عن عمل أفضـل في المدنية التي خيل إليه أنها تملـك الفرص دوماً لرجل مثله، فلا يوفق. تساءل في استسلامه للاستلقاء بلا حراك:

«مادمت أخرج كل صباح بحثاً عن عمل فلم لا يدق الباب عليه العمل نفسه ويدعوه إلى أن يصبح إنساناً محترماً في عالم لا يضره تقديم المعونة للناس ؟»

ها هي دقائق الظلام تصبح كالساعات البطيئـة، فدق قلبـه بالغضب وهو يتصور المستقبل وقد تحول إلى بحث من غير نتيجة فـلا يبقى له آنذاك مـن أمل سوى العود ة إلى القرية.

«أتلـك هـي النهايـة المقـررة لتمرده القديم؟».

أيكـون لـه مـكان في القريـة، أم أنها سترفضه عقاباً على تنكره لها؟»

« أتضيـع منه فرصة العودة كما فعلت به المدينة التي لجأ إليها فتنكرت له ؟»

واستـولى جالسـاً على طـرف السرير الحديدي يتحسس الأرض بقدميه، ويذكره احتـكاك الأقـدام بأمـه وهـي تدير رحا الطاحـون فيتحول صـوت تكسر (العدس) إلى أغنية عذبة.

أين رحلـت أمنا؟، فلـم تخفف دموعه المنحدرة على صفحة وجهه حزنه المتفجر.

«ولم يستطع الوالد أن يقاوم فلحق بأمي، وبقيت الدار الطينية تعبث بها الريح».

«من يرعـى الآن قطعة الأرض الباقية لنا من هذه الدنيا ؟»

ووجد الأخ الأكـبر عملاً له في الخليج، وتزوجت الأخت مـن معلم في قرية أخرى، وحاصرته المدينة بالحاجـة والذل، وبقيت الأرض للرعاة تحرثها أقدام حيواناتهم.

وقـف الشاب في الظلام مفكراً بالتراب المنسي. لو كنت الآن في القرية لقلبت التربة ونثرت علـى خطوطهـا البـذار ولغرست الشتـول، لكنـت جئـت بالغراسـ وملأت الساحـة الخلفية للـدار بالأشجار ووقفت أتأمل أزهار اللوز والمشمش. لملأت الأقفاص بالطيور. البيضة تصبح دجاجة والخرفان الصغيرة شكلت قطيعاً من الأغنام.

«سأرمم القبـاب الطينية، وأصلح كوخ المونة».

تسـاءل في سـره عن قيمـة الطين في احتضان نباتاته وتجميل مسكنه ودعم الذي بدأ يفقده في المدينة. مذلة تتكاثر عليه يوماً بعد يوم. وتحركت ذراعاه تجوسان الطريق

في الفضاء المظلم وهو يفتش عن شمعة تنير له الهدف الذي تحسد في القرية. وكان قد قرر أن يعود إلى الرحم حيث وجد في البداية فبدا له نور الحلم معيناً له على التحرك بحرية في القبو. وما أن اكتملت له صورة أيامه القادمة حتى عادت الروح إلى الكهرباء فساد النور من جديد.

في المساء وكانت الدار خالية من أهلها، عاد الأب من عمله وإذا به يفاجأ بالهدوء السائد فاستمتع بالوحدة. قام بجولة سريعة في أرجاء المنزل ليعود إلى احتلال مقعده المعتاد أمام شاشة التلفزيون وقد بات على استعداد كامل لسما ع الأخبار. كانت لحظات نادرة يوفرها غياب الأسرة فكأن الأخبار على قسوتها سيكون لها طعم في هذه الأمسية، وسيستطيع أن يستوعب سر البورصات وتقلبات الأسواق في العالم.

توقفت الكهرباء فجأة ليهبط الظلام كصاعقة جعلت الرجل ملتصقاً بالمقعد وكأنه جزء منه فتبخرت المتعة التي من لنفس بها وتحول إلى صمت بالغ فقد القدرة على إيجاد مخرج. و أحس أنه فقد التواصل مع العالم من حوله وما عادت لغة الأخبار أو الاقتصاد تعني له شيئاً في ذلك الإبهام الذي سقط في حفرته. إلا أنه ابتدأ بعد مرور دقائق يشعر بمعنى الهدوء الحقيقي بعيداً عن الشكوى المزمنة لزوجته أو إصرار ابنته على متابعة أغنية الغناء التلفزيوني أو تعلق الابن بمباريات كرة القدم المحلية والدولية، فلا تبقى له من الشاشة إلا البقايا. ويبدو أن ذلك المساء قد جاء بظلامه ليجري حساباً مطولاً مع حيا ته العائلية.

أسرة رباعية الأضلاع كمربع يتمدد فيه الضلع في الاتجاه الذي يريد ليملأ البيت، و أما ضلعه فمحسوب. بمقدار لا يستطيع تحقيق تمدده، فلا يجد له مكاناً في البيت الذي يرعاه بعمله فاقداً مكافأة عنه إلا في مناسبات غياب الآخرين النادرة، وها هي الظلمة تجازي أيضاً بحرمانه من متعة المشاهدة المفضلة. قال لنفسه إنّ انقطاع النور لن يطول ولكنه يمنحه فرصة في التفكير للخروج من مأزقه.

« أيستقل بغرفة لا يدخلها سواه فيهدم آنذاك نظاماً طالما نادى به لتحقيق التوحد بين أفراد الأسرة ؟ ».

«أيحرم الأبناء من متعتهم فارضاً رغباته على الآخرين ؟ ».

إنه في الأحوال كلها يطمح إلى أن يكون

رأس الأسرة المتفهم الحنون، ولكنه يود أن ينعم بشيء من الاستقلالية. وكيف يحصل على أمنيته في زمن ولديه اللذين لا يعرفان من المتع سوى الغناء والرياضة. تساءل إنّ كان عصر الطرب والجد قد انتهى ودخل الجيل عصر السرعة والإيقاع المتوتر وما عاد لهم اهتمام بأحداث العالم من قتل وكوارث وتعسف وهزات مستمرة تفوقت على الزلازل.

و فتح الظلام له صدره فتساءل من جديد إنّ كان الزمن يسير حقاً ضده، وهل سيجد نفسه ذات يوم على قارعة المسيرة بعيداً عن واقع الأجيال الجديدة وحيداً.

« هل علي أن أحارب كي أنال شيئاً من حقوقي أم استسلم للواقع ؟ ».

و في الظلام تبدو الحلول أميل إلى التفاؤل فهو لا يستطيع أن يتخذ قراراً صارماً لعدم ثقته بأن هذا القرار سيصبح نافذاً، فجعل يدندن بأنشودة من أيام الطفولة وكأنه يطلب بها الأمان لشيخوخته.

«أعلم أن الماضي لا يمكن له أن يعود وأغمض متحسراً عن عجزه عن إ يجاد تناغم في الأسرة بقيادته، إلا أنه عاد إلى التحديق في الصالة لحظة عاد النور فيها وانحسر الظلام. فهدأت روحه وما لبث أن جعل يتمتم:

«لا بأس من استمرار الوضع على ما هو عليه إذ يبدو أن ما يحدث لنا هو الطبيعي».

وكانت ابتسامته ترافقه مع عودة التلفزيون إلى نشاطه.

ما إن فرغ النقيب الطيار من نزع ثيابه وأعد الشاي حاملاً كأسه إلى المقعد يطلب الراحة في شقته الصغيرة. حتى انطفأ النور وما عاد يرى شيئاً في الظلام الذي احتل المكان بقسوة. لعن حظه فقد كان غيابه ليومين عن سكنه الشخصي مناوباً في القاعدة قد وعده بحلم ليلة هادئة يتابع فيها برامج التلفزيون ليخلد بعدها إلى نوم عميق.مرت عليه اللحظات الأولى متحفزاً لعودة النور. لكنها لم تكن صادقة فراهن نفسه على أن ذلك سيحدث عندما ينتهي العد حتى المئة كما يحدث له عندما يستخدم ذلك التوقيت الحسابي في طلعات الجو. يعد حتى المئتين فيصل إلى حدود الصحراء، أو أن بلوغه سماء القرية يأخذ منه سبعين رقماً. وما إن انتهى من الوصول إلى المئة حتى فوجئ بأن الظلمة ما زالت

سائدة فكرر العد فلم تنفع المئة الثانية. آنذاك هبَّ واقفاً يلعن الكهرباء والأعطال التي تلحق بكثير من الأمور في المدينة.

هتف النقيب في الظلمة بصوت غاضب:

«أهو جزاء المشقة ظلمة لم تخضع لنظامه فتمردت على حساباته ؟».

وجعل يتخيل أيامه السابقة وهي تتساقط عليه كشهب في سماء معتمة. التلميذ الذي لا يفكر إلا في مستقبل عسكري بتمارينه الصباحية كمن يستعد لدخول مباراة في كمال الأجسام. يقبل الشاب في الكلية الجوية ويتطلع إلى الطائرات الجاثمة على أرض المطار على أنها ستكون لعبة القادمة فيحلق بها في الفضاء ويحقق حريته. فهل ستؤدي به تلك الحرية إلى أن يصبح قائداً للسرب. أليس مؤهلاً لأن يحتل مكانة لائقة، فهو من أكثر الطيارين انضباطاً وأقلهم خوفاً من المخاطر، وهو لا يرى من هم في السلطة أكثر تأهلاً منه. في الظلمة أستطيع أن أرى نفسي. وفيها أعرف من أنا. إني أرى الأيام القادمة كما الشمس واضحة. وما من أحد له فرصة مثلي في القيادة. دورات خضتها فدَّلت على تفوقي، وشهد لي كل الخبراء.

« ألا تسمعني جيداً أيها الظلام ؟».

تقدم خطوة في فراغ الغرفة يريد للظلام أن يعرف أكثر عن كبريائه وهو ينتصب بقامته تلامس رأسه غيوم الأحلام، ثم ما لبث أن تراجع عائداً إلى مقعده مستعيداً نظامه في لعبة الأرقام. وما إن وصل إلى العدد العشرين حتى توقف وقد غلبت عليه أفكار تدور حول انقطاع الكهرباء.

«هل الانقطاع يعم الحي أم أن عطلاً أصاب بيته وحده »؟

بعد قليل كان يدير الأمر على وجوه مختلفة:

« هل وجوده كان السبب في أن أحداً يريد مضايقته ؟

هل يبيت له أحد شراً ؟ من تراه بفعل هذا ؟».

و اندفعت أحاسيسه إلى توتر كان شعور يقوده إلى أن شيئاً ما قد يحدث في أية لحظة، وأن بحر العتمة يضمر له مفاجأة. وظلت الشكوك تلاحقه في لحظات الريبة تلك فجعل يتمتم برفض متلاحق للخوف من ذاك المجهول. وكانت الدقائق تمشي قاسية وكأنها دائمة. وفجأة عاد النور، وفجأة هدأت روحه فما ملك من نفسه إلا أن قال بصوت خفيض :

«مهما كانت الأسباب فإن قائداً مثلي يتوقع أي احتمال».

حسبت الصبية أن انفرادها بنفسها في غرفتها بعيداً عن أهلها، سيجعلها تعيد النظر في حياتها. وهذا ما كان يحدث على مر الأيام. وفي تلك الليلة التي انتصفت وخلد أفراد الأسرة إلى النوم وبقيت هي في فراشها تفكر.

«بلغت الثلاثين ولم ينظر إلى رجل حتى الآن فكأنني إشارة استفهام اختتمت بجملة مبهمة!».

« هل فاتك القطار، بل قولي هل سيمر بك القطار أصلاً ؟ «

و انطفأ ضوء المصباح دون تدخل منها فعاينت المفتاح، وهكذا استسلمت لانقطاع الكهرباء عن الدار ولبثت في سريرها لا تتحرك ثم شدت اللحاف إلى رأسها وقد بدد الخوف أفكارها وتسطحت صفحة عقلها وكأنها بيضاء لا إشارة فيها. شعرت بأن للظلمة وظيفتها في تأكيد خواء الحياة التي تمضي فيها بلا هدف وليس فيها ما يؤكد أنها أنثى تستطيع أن تجتذب رجلاً إليها.

هي تعلم الصغار في مدرسة خاصة ممَّ تعود مرتدة إلى البيت. نظام قاتل بقانونه الذي فقد كل فرصة لشيء جديد يحدث. تزوجت أختاها الصغيرتان وأنجبتا الأطفال. أصبحت هي المرأة الوحيدة في الأسرة دون شريك « كل شيء له علاقة بالنصيب. هكذا تقول أمي» قالت لنفسها وهي ما تزال مختبئة تحت اللحاف:

«لو كنت ابنة رجل ميسور لكان عوض بالمال حروق الجسد!».

و كانت النار قد لحقت بجسدها وهي صغيرة فما عاد أحد يفكر بالاقتران بها. وبالرغم من إعجابها برجال من الأقرباء والزملاء إلا أن أحداً لم يجرؤ على التفكير بها. وعندما تفحصت فضاء الغرفة علمت فجأة أن الظلام لا يسمح بكشف عيوبها. فأحبته وأنست إليه. استوت جالسة في فراشها تحدق في ذرات الظلام التي خيل إليها أنها قد تكشف عن ميزات فيها. أنيسة وديعة، محبة للأطفال، تساعد الآخرين، ذكاؤها مشهود له في المدرسة طالبة كانت أو معلمة بعد ذلك. أفلا تؤهلها ميزاتها لتكون شريكة في بناء أسرة وتأخذ نصيبها من الحياة كامرأة!. وجعلت تتحسس بكفيها جسد الظلام وقد خيل إليها أنه يعانقها

بحنان ورقة ويسعى إلى ضمها بشوق كادت أن تذوب فيه.

وبينما تستند برأسهــا إلى المخدة التي لم تبخــل عليها بأحلام الليل الجميلة، كانت تفكر في رجل ما يأتي حاملاً تقديره لجمال داخلها القادر على منح الحب و التعاطف، فــكا ن ذلك الرجل المجهــول يظهر لحظة فلحظــة وكأنــه حقيقة تخرج مــن سديم. وكان الرجل يهمس في أذنها بالرغبة ويردد أنــه يبحث عنها منذ زمن فإذا هي بين ذرا عيــه. وكانت في استجابتها لمداعباته ترسل الآهــات في جو العتمة الرقيق. وإذا ما عاد النور إلى المصباح عبســت غاضبة لتدخله السافــر في لحظا ت حميميتهــا وامتدت يدها لتسكت الضــوء في محاولة لاستعادة اللقاء مع رجل الظلام.

مــرت المناسبــة دون إحيــاء لذكراها بالرغــم من آثارها التي مــا زالت قائمة. وهــا هــو الرجــل المتقاعد يدخــل المنزل الذي لم يعد أحــد يشغله سواه. أشعل النور ليبدد ظلمة المــكان، وجعل يستعرض بعينه الفــراغ الذي تعود علــى انتظاره كصديق دائم. وتقدم الرجــل ببطء من غرفته خلع فيهــا ملا بسه ويتدثر بشال الصوف الذي كان لزوجتــه لسنين طويلة تلف به جسدها النحيل. وخرج بالشــال إلى الصالة متجهاً إلى الأريكة التي كانت الراحلة تشاركه بها، وتمدد عليها يريد أن يرمي عن جسده تعب خمسة وسبعين سنة مــن عمره الذي ابتدأ بالحيوية وها هو الآن لا يطمح إلا بالسكينة والهدوء.

منــذ عشــر سنــين حصل علــى لقب (متقاعــد)، ومنــذ خمس بــات « أرملاً»، واستقــل الأبنــاء متفرقــين في دنيا الله، فاحتفــظ بوحدته التي بقيــت له مخلصة. ومنــذ لحظة همــد نشــاط الكهرباء دون إنذار وعمت الظلمة أرجــاء الدار، فحدق في العمــاء السائد وقال لنفسه كأنها أجواء القبر تهيئني لها ليلــة المناسبة كي أعرف كيف أتعامل معها وأتعايش.

بعــد قليل نظر في الظــلام فرأى رفاق المكتب الحكومي يحتفلــون بوداعه في يوم الوظيفة الأخير، تعليقات وملاحظات ولكن حنجرتــه تغص بالدموع وقــد لازمه شعور بــأن التقاعد هو إشعار بتسليمه إلى الموت. أغمض من جديد فوجد زوجته تقترب منه بلهفــة ثم تحتضن رأســه لتنفث فيه الأمل وتقــول إن الحياة جميلــة تبتدئ في لحظة

كهذه فهما يمتلكان كامل الوقت بعد أن شغله العمل عنها وشغلها الأولاد عنه.

«جاءت الفرصة الذهبية لننعم بأيامنا. لنحتفل».

تذكر أنه أبعد عنه الفزع الذي فرخ في الروح. وأحسن أنه سيغرق في حب المرأة التي ما فتئت تدثره بالحنان والطمأنينة. ومع استمرار سيادة الظلام كان شريط الحياة يتلوى أمام بصيرته في مخيلته. أيام الطفولة، فترة الشباب والحب الذي نسج شباكه حوله فاستمتع بامتلاك العروس لنبض شريانه. سنين أينمون كنباتات يرعاها فتزهر وتثمر. يمتلئ الوجه غضوناً وشيب رأسه يصبح كأعلام بيض تعلن عن استسلامه لتسارع الزمن الطاحن. الزوجة تضعف وتزوي فتمضي أيامها الأخيرة بوصاياها أن يبقى على ذكريات عمر جميل. تساءل المتقاعد عن حصيلة الزمن التي بقيت له «أهي الذكريات تجول ضائعة في الدار ؟».

«هل بات الماضي هو كل ما تبقى له؟».

«أتبقيه الأيام الهاربة على قيد الحياة أم أنها ستكون الأزهار الذابلة ليومه الأخير؟»

هب المتقاعد واقفاً وهو يصرخ بصوت ضعيف إنه ما زال بحاجة إلى الوقت كي يستعيد لذكريات. فعادت الكهرباء فجأة وكشف الضوء للرجل مشهد الفضاء من حوله.

زوجته تبتسم له وأبناؤه يدخلون عليه بالشوق والأحفاد يجرون الضوضاء من خلفهم، وكأن الجميع يحتفلون للحظة عابرة. بمناسبة تاريخية هامة، فلم يستطع أن يعرف إن كانت تلك المناسبة هي في عودة النور أم في تقدم السنين بخطوات لا هوادة فيها.

قرر الشاب الكهل أن يلخص حياته في صفحات ويستريح. جلس إلى مكتبه يتأمل الورق الأبيض، وكانت عودته تلك تحدث بعد انقطاع عن الكتابة دام شهوراً كان يحس فيها بعدم الجدوى في هذا الزمن فالناس لا تقرأ والكلمات باتت لا تجتذب أحداً.

كان القلم ساكناً والورق يتململ بانتظار الكلمات تتوارد عليه فتمنع عنه فراغاً عانى منه طويلاً.

«من أين أبتدئ؟»

كان صغيراً في الغابة تهدده الوحوش. ولكنه شطب الجملة وهو يقول لنفسه أن لا بد من سلوك البداية التي لا مفر منها.

كنت أنتظر الخروج من رحم أمي من غير أن أحسب خطورة الحياة التي سأواجهها».

وانقطع النور فجأة لتختفي الأشكال وتعود الألوان إلى السواد الذي لا معنى له. ما عاد يرى فقام متجهاً إلى المطبخ. بحثاً عن شمعة. ولكنه تعثر بشيء في طريقه فعاد مكانه مقرراً أن يستفيد من الظلام ليعيد تنظيم أفكاره.

هل كان الرحم المكان الذي ينمو فيه الجسد دون الأفكار، كما هي حفرة القبر يذوي فيها الجسد ويضمحل العقل الذي سيتحول من مولد للأفكار إلى قطعة من العدم ؟ أتراها فترة الظلام هذه أشبه بالرحم أم أنها كالقبر؟

أغمض لهنيهات ثم حدق في مجهول العتم فكانت حياته تمر كشريط يقس الزمن بين الحفرتين، الرحم والقبر. ولدت فاستقبلت الزغاريد بصراخي. جئت راكضاً أبحث عن الحياة التي فتحت ذراعيها فغمرني الحنان كموج رقيق. ونموت متمدداً كفرع شجرة يستطيل نحو الضوء. وكانت الأحلام كالنسغ يغذي الطموح فباتت لي مطالب لا حدود لها. أن أستمتع بالحرية وأن أحقق الأحلام وجدت نفسي أتجه بكل قواي نحو الأنثى فكان لي أول حب، ثم فزعت عند أول خيبة لأعتقد آنذاك أن الحياة قد انتهت. جعلت بعد ذلك أفكر في الكون وأتأمل في أوضاع الناس فعثرت على العزاء وتمسكت بالحياة وتجمعت أفواج الحروف في الكلمات فزاوجت بينها والأفكار والصور فعلمت أن الكتابة هي البقاء والمصير. توقفت أمام المرآة فوجدت أن العمر يمضي بأسرع مما هي عليه الأحلام المتراكضة. وعاد النور إلى ضيائه فأصاب البهر عيني الرجل فكان بياض الورق أول ما صافح نظره فأمسك بالقلم وجعل يكتب.

«ما زلنا بحاجة إلى ما يضئ خطواتنا في طريق البحث عن وجودنا، وما زالت الكتابة من غير نور تؤدي إلى استمرار بقاء الأوراق بلا معنى، ولا يمكن للكتابة أن تتحقق من غير أفكار وأحلام».

وتوقف الرجل مصغياً إلى صوت يخاطبه من أعماق نفسه وهو يقول ألا تعتقد أن الناس، ما زالوا بحاجة إلى الأفكار تملأ أرواحهم وإلى الأحلام تحقن آمالهم، وألا تظن أنه توجد رغبة عند الآخرين للإصغاء إلى من يكتب لها بجد حقيقي. وقال لنفسه:

«يبدو أنني أخطأت في حكمي على الناس».

«وهكذا عاد إلى الكتابة من جديد». ■■